



لا يكفي تعريف الثورة السورية بشعاراتها عن الحرية والكرامة، أو بصور الاستبسال المذهل والمغارعة المكلفة والمستمرة منذ أكثر من عام بين شعب ينتفض لنيل حقوقه وبين نظام لا يتوانى عن استخدام أشنع وسائل القهر والتنكيل وأكثرها ضراوة للحفاظ على موقعه وامتيازاته؛ بل برصيدها المعرفي الثمين وبما تكرسه من مفاهيم وقيم مختلفة في الحقل السياسي، ولنقل ثقافة بديلة تؤسس لمصادر جديدة للشرعية تنقض الماضي الاستبدادي وتعيد الاعتبار للمعنى الحقيقي للسلطة والمسؤولية.

هي شرعية تستمد من الوعي الديمقراطي وحقوق الإنسان جذورها، وتضع الجميع أمام مسار جديد، عنوانه إعادة صياغة علاقة صحية بين المجتمع والدولة والسلطة تقوم على احترام الحقوق والحريات والمشاركة، وتعلن فك ارتباط نهائى مع مصادر الشرعية القديمة التي حكمت بموجبها سورية لعقود من الزمن.

منذ أول انقلاب عسكري حصل في مطلع الخمسينيات نستطيع القول إن مجتمعنا السوري قد ابتدىء بمنطق خاص في فهم السلطة والمسؤولية فرضه مدعوا الوصاية على الناس والوطن، وجوهره ليس التنافس الصحي لاختيار الأفضل في إدارة المجتمع والأكثر كفاية للتعبير عن مصالح فئاته وتكويناته المتعددة، بل مبدأ القوة والجبروت ووسائل القمع والإرهاب وتقاسم المنافع والمفاسد. وحين تختار وتستند النخبة السياسية الحاكمة إلى شرعية القوة لحفظ سلطتها وإعادة إنتاجها، فالغرض أن يبقى الناس أسري الخوف والرعب ومبعدين عن التدخل في الشأن العام والمشاركة والمراقبة والمحاسبة.

لكن ومن أجل توسيع العنف المادي والقمع العاري لا بدّ من غطاء شرعي توفره عادة عبارة "الشرعية الثورية" المستقوية بشعارات سياسية وأيديولوجية، مرة بالتفنّي بإنجاز مشروع تنموي كبير، ومرة بحجة النضال القومي وإقامة الوحدة العربية، ومرة بدعوى مركزية القضية الفلسطينية وألوية مواجهة الصهيونية وتحرير الأرض من الاحتلال، ومرة بمحاربة المؤامرات والأخطار التي تحيكها دوائر الغرب الاستعماري، ومرة بحجة الحفاظ على الأمن والاستقرار والوحدة الوطنية في مواجهة احتمالات الفوضى والتذمر، ومرة بالتخويف من وصول تيارات إسلامية متطرفة إلى سدة الحكم وتنمية مخاوف بعض الأقلية منها والمبالغة في الترويج لمظاهر التضييق والتنميط المهددة لهوية هذه الأقلية وحقوقها وطرق عيشها!

لم يتوقع السوريون عندما بایعوا حکومات ما بعد الاستقلال أنها ستكون مقدمة للاستبداد، لم يخطر على بالهم سوى الانتصار لسلطة قومية ووطنية حتى إن صنعتها انقلابات عسكرية وأدوات أمنية مفتونة بلغة القمع والغلبة، وكان لا بدّ أن تجري مياه كثيرة حتى يدرك الناس أن الحكومات السورية المتعاقبة لم يكن يهمها سوى تعزيز امتيازاتها وامتيازات المحظيين بها، وأنها لن تفعل شيئاً سوى المحافظة على ديمومة سلطتها، وبالتالي إذ نجحت النخب الحاكمة بداية، في توفير

قدر من التغطية السياسية وحد من القبول الشعبي وتشكيل حالة من الرضا المجتمعي بها، إلا أن الإخفاق والفشل في إنجاز ما أدعنته وما وعدت به وضع شرعيتها موضع النقض والتغيير، وشكل أهم العوامل الحافزة للثورة السورية ومدتها بعزم النهوض والمثابرة والاستمرار.

فيما مضى سعت السلطة لتلبية بعض الحاجات الحيوية للناس؛ كتحسين المستوى المعيشي، وتوفير فرص العمل والتعليم والخدمات الأساسية، لكن لم يمض وقت طويل حتى ذاب الثلج وبان المرج وظهر لكل ذي عين كيف يستحوذ أصحاب الشعارات الطنانة – لقاء جدهم في رفع هذه الشعارات – على مصادر الثروة، وكيف ينساقون إلى إهمال حاجات المواطنين بل محاولة إقناعهم بأن الاستقرار والأمن هما أهم من الكرامة والحرية، وأن المرحلة الخطيرة التي تمر بها البلاد في مواجهة مطامع القوى الخارجية تتطلب شد الأحزمة على البطون وامتهان الذل والتعايش مع القمع والتمييز والاضطهاد والتنمية بمصالحهم أمام مصالح الوطن، بينما هذا الواجب لا يعني الزعماء المتنفذين بل يزيد من اندفاع شهوتهم إلى تكديس الثروة وتعزيز السلطة وتفرغ المجتمع من كفاءاته ومن قواه الوطنية الشريفة والحياة.

وبعد تعدد التجارب العاجزة، شهدنا انحداراً لافتاً في خطوات التنمية وفشل متكرراً في إنجاز الخطط الخمسية وتداعي دور قطاع الدولة حتى صار عبئاً على المجتمع والاقتصاد، ربطاً بتنامي حالة الفساد ونهب الثروات الوطنية، لغدو ظاهرة الفساد ماركة مسجلة باسم السلطة السورية أبرز تجلياتها نمو الروح الانتهازية وتسلا الشخصيات المريضة إلى موقع القيادة وإلى المناصب السياسية والإدارية، خالقة من حولها عالماً فاسداً على صورتها ومثالها، لتغدو البلاد كما لو أنها تدار من قبل شبكة متaramية الأطراف، لا هدف لها ولا غرض سوى تسخير الصلاحيات وموقع المسؤولية لخدمة الامتيازات الخاصة وسرقة المال العام.

عادة ما تنجي النخبة الحاكمة في توظيف الشعارات الوطنية عن المقاومة والتحرير لسحق دعاة الحرية والديمقراطية، لكنها اليوم أمام زخم الثورة أخفقت وكشف عنفها المفرط حقيقة أن تمظهرها بالمظهر الوطني الحريص، هو سلاح لضبط الأوضاع الداخلية وليس للمواجهة في الخنادق وساحات القتال، أو أشبه بمحاصن تمتطية لتصل إلى مآربها في حماية ما جنته من مكاسب ومحاذيم وتعزيز أسباب سلطانها، وأظهرت في التركيز على دورها في حماية الاستقرار في المنطقة، أنها إنما تستند في ادعاءاتها عن الممانعة والمقاومة كي تتسلل رضا بعض الأطراف الإقليمية وخاصة إسرائيل!

الثورة السورية اجترحت حضورها في مواجهة هذه المنظومة السياسية البالغة التعقيد التي تحكمها شعارات مواجهة المخططات الصهيونية والمقاومة وتحرير الأرض المحتلة، ونجحت بصدقيتها وحساسيتها الوطنية في الرد على محاولات الطعن بها، وعلى الدعایات التي تصور ما يجري على أنه أفعال متآمرين ومندسين يرتبطون بأجندة خارجية، إمبريالية وصهيونية، غرضها النيل من الموقف السوري الممانع.

واستدراكاً، ليست المشكلة في أن تكون المسألة الوطنية وتحديات الخارج منطلقاً لفكر سياسي ما ومستقره، بل المشكلة حين توضع إشارة مساواة بين الوطن والسلطة، ويجري اعتبار أي مساس بمقومات سيادة هذه السلطة وأسس سيطرتها هو مساس بمقومات البنية الوطنية وقدرة المجتمع على المواجهة، بما في ذلك استسهال توجيه الاتهامات بالعمالة والخيانة بحق المعارضين واعتباره عدواً للوطن وأحد أدوات الهجنة الإمبريالية والصهيونية كل من يعترض على سياسات السلطة أو يناهضها!

في الجانب الآخر، فإن النخبة الحاكمة التي قدمت نفسها بصفتها نخبة ذات رسالة قومية، والتي بدعوى معالجة الوضع الممزق للأمة العربية، تمكنت من توسيع مختلف أشكال الاستثمار وتشديد القبضة القمعية على المجتمع والتحكم بثرواته، لم تعد تستطع اليوم بعد النتائج المحبطة والمخلجة التي وصلنا إليها قومياً، إعادة إنتاج شرعيتها السياسية كما كانت تفعل سابقاً لتبرير استمرارها في سدة الحكم وما تقوم به، ولم تحول النضال القومي إلى ما يشبه الدفاع السليبي عن مقومات

الدولة القطرية فحسب، بل انتقل أهل الحكماليوم إلى شن هجمة محمومة من الاتهامات بالعمالة والخيانة ضد الدول العربية بسبب تدخلها تحت وطأة الضغط الأخلاقي للدم المراق، في معالجة الحالة السورية، فضلاً عن أنها لم تتوان عن تعزيز تحالفاتها الإستراتيجية مع دول تطمح إلى مزيد من النفوذ في المنطقة على حساب العرب ومصالحهم، والنتيجة انهيار دعايتها الأيديولوجية القومية وانحسار الرداء الذي دأبت على ارتدائه، وخير دليل أن الألوف المؤلفة من قواعد حزب البعض وكوادره، خاصة في المناطق التي شكلت فيما مضى الخزان البشري للفكر القومي، في حماة وحمص ودرعا ودير الزور وغيرها، هياليوم من يشارك في الاحتجاجات والمظاهرات ومن يحمل لهم الديموقراطي ولواء الحرية والكرامة في مواجهة الحملة الأمنية والعسكرية المستمرة!

كانت السلطة فيما مضى تحتاج إلى دعاية أيديولوجية مغرضة تقول إن رسوخ المجتمع واستقراره هو بوابة الأمان، لكن هذه الدعاية انهارت جراء انكشاف أساليب السيطرة المختلفة من قمع عار وفساد ومن تفريط بوحدة المجتمع عبر سياسة منظمة تعمل على تأليب فئات ضد أخرى واستيلاد النزعات الطائفية والإثنية والعشائرية لتسهيل إدارتها وتطويعها، وجراء انفصال دورها في تقسيم الشعب إلى طوائف وفئات وإقناع كل منها بأن أجهزتها هي ضمانة الحماية من اعتداء الآخرين، كي تبرر دورها التسلطي على أرضية الحفاظ على الأمن والاستقرار.

لقد قبل السوريون الاستبداد وتكيفوا لوقت طويل مع مزاجيته، على أنه جزء من ضريبة الاستقرار، وبمعنى آخر فإنهم منحوا السلطة الثقة المطلقة في الحفاظ على أمنهم دون تقدير للآثار السلبية التي بدأت تظهر حول حقيقة وحدتهم الوطنية ومعاني الاستقرار المجتمعي، انعكاساً لما قامت السلطة به في توليد الارتباطات المختلفة من قبلية وطائفية ومناطقية، ومساهمتها في إحياء شبكات من المصالح عبر العلاقات العشائرية والدينية!

يخطئ النظام السوري حين يعتقد أن بإمكانه إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء وتفادي التغيير بالتحايل والالتفاف أو بالجسم الأمني والعسكري واعتبار ما يجري مجرد أخطار عابرة وطارئة تزول في حال ردعها وكسر إرادتها أو احتواها وامتصاص زخمها، والحال أنه لا يمكن القفز بعداليوم وبعد عام من الثورة، عن استحقاقات باتت نوعية لحياة المجتمع السوري ومستقبل تطوره، أهمها فك الارتباط بين الحالة الراهنة وبين مصادر الشرعية القديمة، وإرساء مفهوم جديد عن الشرعية تستمد حضورها من نيل رضا الناس وقبولها وحرية اختيارها، وليس من أيديولوجية أو دين أو مشروعية ثورية، وجواهرها إحلال القراءة النسبية للأمور في حقل السياسة مكان التعبئة الشمولية والإلزامية، وتكريس التراضي والتوافق في بناء عقد اجتماعي يضمن للجميع حقوقهم وحرياتهم، محل قواعد التسلط والاحتياج والإلقاء، وتهدف في المحصلة لإعادة الناس إلى السياسة وفتح المجال أمام المشاركة الطبيعية للجميع، وهذا ينعكس أيضاً في قراءة جديدة لعلاقة السلطة بالدولة، بحيث لا تغدو هذه الأخيرة مجرد أداة طبعة بيد أهل الحكم بل هي ملكية عمومية للجميع تتضمن كفاءة الأداء على حساب الارتهان السياسي.

إن الهدف العميق من الثورة في الخصوصية السورية هو إعادة رسم العلاقة الصحيحة بين السلطة والديمقراطية والدولة، فهذه الأخيرة لا تتطور ولا تتقدم إن لم تعتمد على مجتمع حي متحرك ويمتلك حريات ثابتة وقدرة على التجدد، ثم بعد أن كانت الدولة مملوكة من قبل سلطة تحوز صلاحيات مفتوحة وقدرات لا حدود لها على التعسف تحت ذرائع أمنية وسياسية وأيديولوجية، نجد أن الثورة خلقت تعرضاً جديداً لدولة خاضعة لصلاحيات وواجبات عمومية وتضع نفسها في خدمة المجتمع وليس في خدمة سلطة قابلة للتداول.

التاريخ لا يكاد ينتهي في زمن إلا ويبدأ مجدداً في زمن آخر، والتغيير القادم في سوريا أيًّا كانت صورته وحيثياته لن يكون أكثر سوءاً مما نعيش، فحصاد الشعارات البراقة طيلة عقود لم يكن إلا الهزائم والانكسارات ومزيداً من التردي والفساد وقهر الإنسان وإهقاره، وقد آن الأوان لإزالة هذا المستنقع الآسن وفتح صيرورة جديدة، لعل أهم ما فيها تقدم دور البشر في تحرير

مصيرهم وصياغة مستقبلهم دون إقصاء أو وصاية!!

نعم، إن الثورة السورية تستند اليوم إلى ضرورة لا غنى عنها وهي تنامي دور الناس ورغبتهم في التخلص من ثقافة قديمة بين الحاكم والمحكوم والرد على تاريخ من الركود ومن إطلاق الشعارات لتسويغ الاستبداد، وبعد الثمار المرة التي حصدناها وما وصلت إليه حالنا، لم يعد من المقبول تكرار هذه المعادلة، والنظر إلى الشرعية على أنها مجرد شعارات براقة ووعود وردية، لتسويغ القمع والإذلال.

يقول الشباب السوري الثائر: إن زمن الوصاية قد انتهى وموسم الأيديولوجيات قد انقضى، وإن دولة المواطنة والديمقراطية هي مستقبلنا، وإن ما هو جيد سيمكث في الأرض أما الزبد فيذهب جفاء!

المصدر: الجزيرة نت

المصادر: